رأي

تعليم العلوم .. الحلقة المفقودة

أيمن خليفة

منذ اللحظات الأولى لعملي معلماً لمادة العلوم العامة للمرحلة الإعدادية، وأسئلة لا تكاد تفارق رأسي: هل يمكن، حقيقة، تعليم العلوم باحتراف يقود إلى إحداث تغيير بنيوي في التركيبة الشخصية للطالب؟ هل يمكن إحداث القطع المطلوب بين العلوم ومباحث العلم الأخرى من أجل إحداث التكاملية بينها، التي تستند إلى المنهج العلمي في البحث والتفسير؟ هل يعدو تعليم العلوم في بلادنا إلا أن يكون امتداداً طبيعياً لعصر الكتاتيب؟ ما المطلوب من معلم العلوم ضمن أوضاع تعليمية صفتها الغالبة الروتين، والعبء الوظيفي المفرط دون المقابل المادي المجزي؟ هل حقيقة يمكن لنظامنا التعليمي الحالي في سياق النظرية والتطبيق إنتاج أفراد "علميين" على المستوى الشخصي والمهني؟

الأسئلة كثيرة وتكاد لا تنحصر في سؤال واحد وحيد بعينه، ولكن يبدو أن هناك اتفاقاً شعبوياً ضمن فئات المعلمين –على الأقل من الزملاء– أن الحل يكمن –مع افتراض المشكلة– في تحسين الظروف الوظيفية لمعلم العلوم من خلال تقليص العبء الوظيفي وزيادة الراتب ... الخ.

إن هذا التسطيح للأمور بمحاولة رد ضعف الواقع العلمي على سبب واحد وحيد لا يمكن وصفه إلا بمحاولة سريعة للتفسير. ولكن يمكن إيلاء بعض الأسباب أهمية تفوق الأخرى، بحيث يمكن وصفها بأنها رئيسة ومفصلية. فالبعض يعتبر أن أساليب التدريس الحالية هي سبب مباشر في تدني المستوى العلمي الإبداعي لدى الطلاب، وهنا يجد جيش من "التربويين" الفرصة المناسبة لعرض آخر ما توصل إليه "علم" التربية الحديث من نظريات وأساليب في التفكير والتعليم يمكنها –حسب وجهة نظرهم– إحداث التغيير المطلوب بكبسة زر واحدة، حيث يطلق العنان للنظرية الجبارة كي تعمل ضمن خط إنتاج واحد في صناعة العلم والعلماء. وهذه النظريات التي نمت وترعرعت في بيئات مختلفة كل الاختلاف عن البيئات المستوردة لها، لا يمكن لها أن تعمل بكفاءة مطلقة إلا بمواءمتها للبيئات المحلية، وهنا ينبري أمناء الترجمة والتحوير في تبديل وإحلال المصطلحات الشاذة والكلمات الخارجة عن نطاق الثقافات المحلية بأخرى أكثر قبولاً، وضمن الحد الأدنى للفهم العام. بهذا، يصبح لدينا –وبحمد الله– النظرية الواعدة التي لا يعتريها الباطل ولا يشوبها النقص.

والبعض الآخر يرى أن غياب التقنيات العلمية وأدوات المعرفة الحديثة هي السبب المباشر وراء ضعف الواقع العلمي الحالي، ويدعو إلى تدعيم المدارس والكليات والجامعات بآخر ما توصلت إليه التكنولوجيا من أدوات وتطبيقات في مجال التعليم –ويغيب هنا مجال البحث– متمثلاً بذلك النموذج الغربي الملهم الذي يقود العالم تكنولوجياً. وتشتعل الحماسة ويأخذ "الخبراء" على عاتقهم إقرار ما يجب استيراده من أجهزة وأدوات بأعلى المواصفات كي يتحقق الهدف المطلوب بإحداث النقلة النوعية في تعليم العلوم. هنا تجدر الإشارة بارتفاع كلفة هذه المواد وعدم جاهزيتها للتعاطي مع الأعداد الضخمة للطلاب التي تميز صفوفنا الدراسية، وفي كونها معدة كأدوات تعلم فردية أكثر من كونها أدوات تعلم جمعي.

وينعطف البعض الآخر منعطفاً خطيراً برد المسألة برمتها إلى الابتعاد عن الأصول؟ الأصول الحقيقية للتفكير ومناهج البحث العلمي "العربي الإسلامي"، مدعماً موقفه بإنجازات العرب والمسلمين السابقين في حضارات سادت قبل قرون خلت! ويأخذ الناقدون منهم شرف جلد الماضي ومحاكمته "موضوعياً"، اللهم لا لشيءٍ إلا من أجل تعلم العبر والفهم الدقيق للخبر. وبين مد وجزر في محاكمة ماضٍ بعيد وحاضر غريب، يضيع الفهم وتنحرف البوصلة عن اتجاه الموضوع وروح المشكلة.

ما الحل إذن، لماذا توقفنا عن إنتاج العلم والعلماء؟ هل مرد ذلك إلى النظرية، أم الممارسة، أم الأدوات؟ أم أن المشكلة خليط من كل هذه العناصر؟ هل يجب حقاً تأسيس القطيعة والفاصل بيننا وبين الشمال الأكثر حظاً والأوفر "علماً" كي ننمو "طبيعياً" دون تدخل الآخر؟ هل يجب أن نعيد رحلتنا في الصحراء مرة أخرى، متمثلين دروب من سبقونا؟ هل نحن بحاجة إلى إعادة اختراع العجلة مرة أخرى؟ كيف الهروب من معادلة العرض والطلب واقتصاد السوق من أجل تأسيس علم وطني؟

تساؤلات كثيرة قد يرد على بعضها ويكون الرد زئبقياً على البعض الآخر. ولكن يمكن أن يضاف إلى جملة التفاسير الجامعة تلك تفسير آخر! إعادة فهم النظرية والممارسة والأداة على أنها ضرورة حياتية، وأنها وسيلة تحرر حقيقية من فلك التبعية للآخر، حيث تعمل الرغبة الذاتية هنا، كمحرك أساس ودافع رئيس في تبني المنهج العلمي. هنا وهنا فقط، يمكن أن يتم إقحام قطاع عريض من المجتمع في التعامل بجدية أكبر مع المشكلة، وهذا بدوره يولد النظريات والممارسات والأدوات المواءمة لمجتمعاتنا النابتة من تربتنا.

على أن هذا التصور أيضاً قد لا يكمل السلسلة، التي تلتف حول أعناقنا كي تخنقنا أكثر وأكثر ضمن صراع محموم لا يهدأ، وتنافس للسيطرة لا يكلُّ ولا يأبه. وتبقى الحلقة مفقودة بانتظار من يعيد وصل السلسلة.

أيمن خليفة – باحث في مركز القطان